حركية قصيدة الرثاء في النقد الحديث
(مقاربة بينية)

إعداد

د. عز العرب فاروق عبد الرزاق محمد

أستاذ مساعد بكلية العلوم والآداب بطبرجل _جامعة الجوف

المستخلص:

شهدت مطالع القرن العشرين ثورةً رائجةً في حركية النقد الأدبي ، أدت بدورها إلى تطور الحركة الشعرية ، وإذكاء روح التطور والتجديد بين أوصال الاتجاهات والمذاهب الأدبية المختلفة ، ولقد نشأ في إثر هذا وبأثر من آثار الترجمة ما عرف بالمدارس الأدبية في الأدب العربي الحديث ، تلك المدارس التي كان لها الفضل الكبير في نهضة أدبنا العربي الحديث من كبوته ، وإفاقته من غفوته التي طال أمدها في غضون العصر العثماني الذى عرف بعصر الخمول والجمود للأدب العربي .

ولقد كان لتنوع مشارب أصحاب هذه المدارس أثر في اختلاف مذاهبهم ، وهو اختلاف أدى إلى التنوع في بعض جوانبه ، وإلى الانفصام في بعضها الآخر ، فلقد كانت هناك مدرسة الإحياء والبعث تلك التي كانت تُعْنَى بالتراث الأدبي ، والمحافظة على ثوابت القصيدة التراثية والنهضة بها انطلاقاً من هذا المنحى المحافظ ، في حين كانت هناك مدرسة الديوان والتي رأت بدوها أن تستفيد من كثير من النظريات والمناهج الأدبية في الآداب الأجنبية ، كما رأت أن تحدث ثورة في بناء القصيدة التراثي ، الذى لم يعد مجارياً لروح العصر ومواكباً لتطوراته ، والى جانب هاتين المدرستين كانت(جماعة) مدرسة أبولو تستحث الشعراء في التعبير عن إبداعاتهم في جو من الحرية والطلاقة التي لم تكن معهودة من قبل ؛ بحيث جمعت في ظلها الكثيرَ من التيارات والاتجاهات الشعرية والنقدية على السواء ، وكان لهذا دورُه في بناء جسور حركية قصيدة الرثاء بين هذه المدارس والتيارات ، بحيث أفادت كل واحدة منها من الأخرى في الحركية النقدية ، وكانت هناك انعكاسات وشواهد توحى إلى أن تلك المدارس قد أفادت من الأخرى الى جانب إفادتها من معطيات تراثها الأدبي والنقدي.

الكلمات الافتتاحية: قصيدة ،الرثاء، مقاربة ،بينية.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، وبه نستعين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعـــــــــــد

فلقد شهدت مطالع القرن العشرين ثورةً رائجةً في حركية النقد الأدبي ، أدت بدورها إلى تطور الحركة الشعرية ، وإذكاء روح التطور والتجديد بين أوصال الاتجاهات والمذاهب الأدبية المختلفة ، ولقد نشأ في إثر هذا وبأثر من آثار الترجمة ما عرف بالمدارس الأدبية في الأدب العربي الحديث ، تلك المدارس التي كان لها الفضل الكبير في نهضة أدبنا العربي الحديث من كبوته ، وإفاقته من غفوته التي طال أمدها في غضون العصر العثماني الذى عرف بعصر الخمول والجمود للأدب العربي .

ولقد كان لتنوع مشارب أصحاب هذه المدارس أثر في اختلاف مذاهبهم ، وهو اختلاف أدى إلى التنوع في بعض جوانبه ، وإلى الانفصام في بعضها الآخر ، فلقد كانت هناك مدرسة الإحياء والبعث تلك التي كانت تُعْنَى بالتراث الأدبي ، والمحافظة على ثوابت القصيدة التراثية والنهضة بها انطلاقاً من هذا المنحى المحافظ ، في حين كانت هناك مدرسة الديوان والتي رأت بدوها أن تستفيد من كثير من النظريات والمناهج الأدبية في الآداب الأجنبية ، كما رأت أن تحدث ثورة في بناء القصيدة التراثي ، الذى لم يعد مجارياً لروح العصر ومواكباً لتطوراته ، والى جانب هاتين المدرستين كانت(جماعة) مدرسة أبولو تستحث الشعراء في التعبير عن إبداعاتهم في جو من الحرية والطلاقة التي لم تكن معهودة من قبل ؛ بحيث جمعت في ظلها الكثيرَ من التيارات والاتجاهات الشعرية والنقدية على السواء ، وكان لهذا دورُه في بناء جسور حركية قصيدة الرثاء بين هذه المدارس والتيارات ، بحيث أفادت كل واحدة منها من الأخرى في الحركية النقدية ، وكانت هناك انعكاسات وشواهد توحى إلى أن تلك المدارس قد أفادت من الأخرى الى جانب إفادتها من معطيات تراثها الأدبي والنقدي.

لذلك لا نعدو الحق " إذا قلنا إن شعرنا المعاصر ليس إلا حلقة متممة لشعرنا الوسيط والقديم ، مثله في ذلك مثل الفصل الأخير في مسرحية ، فهو لا يُفْهَمُ بدون ما سبقه من فصول ، وهو لا يستقل بنفسه في أحداثه ومعانيه ، وكيف يستقل شعـ رنا عن الشعر الماضي، وهو امتداد

له ، وتعبير عن نفس مجتمعه وكل ما يجرى فيه ظاهرا أو مستتراً من ظروف وملابسات تاريخية وغير تاريخية " [١]

ولم يكن الأدب في تلك الحقبة بمعزلٍ عن المجتمع في شتى أبعاده ، وأدق خلجاته ، لذا كان للجمهور دورُهُ الأساسي في التفاعل مع النص الأدبي " كان هذا التفاعل الخلاق يولد باستمرار شرارة جديدة ينتج عنها ميلاد وعى جديد يتجاوز الثابت بحثاً عن مذاقٍ غير مألوف أو مكرر ، ذلك أن الجمهور المستقبل للشعر – والذى يضم بطبيعته طبقات شتى من المثقفين والمتعلمين والمريدين والفضوليين والهامشيين المعنيين بالشعر ـ على مستوى الاهتمام الجاد والمتابعة اليقظة ـ وغير المعنيين ، هذا الجمهور كان لديه دوْماً وعيُهُ النقدي الخاص القادر على الفرز والتمييز ، ووضع الأمور في وضعها الصحيح . حتى عندما تلتبس لبعض الوقت ، فإنه يعود ليضبط ويصحح ، متجاوزاً خطأً عابراً أو عثرةً مؤقتةً أو سوء فهم وتقدير " [٢]

ولما كان تراثنا الشعرى ـ كغيره ـ فيه الغث والسمين ، الخالد الباقي على كل عصر ، و ابن عصره الذى لا تمُدُّه أنفاسه بالعيش إلى أبعد من يومه القريب ، كان هذا التراث مصدرَ الإلهام في الشعر المصري الحديث ، بل كان مصدرَ التجديد ، ذلك لأن " التجديد ليس هدمَ القديم أو الكفرَ بالتراث الذى خلفه الأجداد كما يتوهم بعض أدباء العربية الذى تهوله لفظة التجديد ويخشى أن يتناول شرَّها الدينُ واللغةُ والنظمُ الاجتماعية ، وإن الملمَّ بشيء من آداب العرب وفنونهم يعلم أن الرفعةَ والانحطاطَ قد تناوبا اللغة منذ وجودها حتى يومنا فكانت تنمو وتزدهر في عصر العبقرية والمجددين ، وتضؤل وتجدب في زمن الخاملين المقلدين " [٣]

---

[١] فصول في الشعر ونقده ، مقال " حاضر الشعر العربي متصل بماضيه د/ شوقي ضيف صـ٣٢٣ ، دار المعارف طـ٣ ١٩٨٨م .

[٢] جريدة الأهرام ، مقال للأستاذ فاروق شوشة بعنوان (الشعر والجمهور - ٣) ص ٢٤ طـ١ ، العدد ٤١٣٧٦ ، السنة ١٢٤ ، الأحد ١٣ من ذي الحجة ١٤٢٠ هـ - ١٩ مارس آذار ٢٠٠٠م ، ١٠ برمهات ١٧١٦ .

[٣] ظواهر التمرد الفني في الشعر العربي الحديث ، د/ رياض العوابدة صـ٧ ، منشورات دار معد للطباعة ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م .

من هنا كانت فكرة هذا البحث الذي يستدعي التراث النقدي في التناول الشعري من حيث إنه كان منطلقاً لمدرسة الإحياء والبعث ، وركيزةً أساسية لمدرستي الديوان وأبولو ؛لذا كان البحث منصباً على تلك المدارس الأدبية فقط كنموذج لحركية قصيدة الرثاء في النقد الحديث .

أما عن أهم العوامل التي دفعتني إلى اختيار هذا البحث فهي :

١- أننا في معركتنا المستمرة لإثبات وجودنا ، وتأكيد استقلال شخصيتنا سواءً في الميدان الداخلي أو الخارجي ـ نكون أميلَ إلى أن نُضْفيَ على إنتاجنا قيمتَهُ الحقيقية ، ونكون أميلَ إلى مساندة هذا الإنتاج وربطه بالتراث ، لاسيما وأن في ذلك حفاظاً على الدين واللغة .

٢- تعميق أواصر التقارب الفكري والثقافي والأدبي والعاطفي بين الأجيال الأدبية ، لاسيما الشاعرية منها ، وبخاصة في هذه المرحلة الراهنة التي أضحينا فيها نهباً لكل معتدٍ دخيل .

٣-نفى الصراع الأدبي من خلال فنية القصيدة ، وتأكيد مبدأ الحركية ، ذلك لأن مبعث الصراع كان الحوارَ أو النقاشَ الذى كان ـ غالباً ـ حاداً وعنيفاً ، وكثيراً ما تجاوز الحدود الموضوعية إلى أخرى شخصية ، وكثيراً ما أسهمت معارك السياسة الحامية بين الأحزاب والجبهات والأشخاص في تلوين الحوار وتصعيده ، وفى أحايين أخرى كانت العقيدةُ الدينيةُ تخوض المعاركَ الأدبية دفاعاً عن الدين وحماه .

وقد تحقق لدى إقرار الشعراء المجددين بمتابعتهم الشعراء السابقين من خلال حركية القصيدة عندهم؛ بل وتصريحهم بذلك ، كذلك كان البناءُ الفني للقصيدة عند " مدرسة الإحياء والبعث " والذى ارتكن إلى القديم إلا من بعض الومضات التجديدية ، كان هذا البناء منهلاً عذباً للمجددين من رواد مدرستي " الديوان " و " أبولو " .

هذا ولا أدعى أن بحثى هذا قد استفتح مغاليق أسرار ظلت طي الكتمان ، فقد أضاءت لي كتب الأدب كثيراً من جوانبه من مثل :

- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر د/ عبد القادر القط ، مكتبه الشباب ١٩٩٢م
- تطور الأدب الحديث في مصر من أوائل القرن التاسع عشر إلى قيام الحرب الكبرى الثانية د/ أحمد هيكل ، دار المعارف ، ط ٢ ١٩٧١ م
- تطور القصيدة الغنائية في الشعر العربي الحديث من عام (١٨٨١ – ١٩٣٨م) د/ حسن أحمد الكبير ، دار الفكر العربي ١٩٧٨ م
- صراع بين جديد شعرنا وقديمة ، ترجمة سعد صائب ، دار الرائد العربي بيروت ، ط ١ (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م)

- الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث د/ محمد الكتابي ، دار الثقافة المغرب ط ١ (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٢ م)
- الظواهر التراثية في الشعر المصري الحديث – مدرسة البعث والمحافظين – د / محمد حسين عبد الحليم ط ١ (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م)
- ظواهر التمرد الفني في الشعر العربي الحديث د/ رياض العوابدة ، منشورات دار معد للطباعة والنشر ، ط ١ ١٩٩٥ م
- فصول في الشعر ونقده " حاضر الشعر العربي متصل بماضيه " د / شوقي ضيف ، دار المعارف ، ط ١ ١٩٧١ م
- ملامح وحدة القصيدة في الشعر العربي بين القديم والحديث د/ سامى منير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ١٩٧٩ م

وآمل بعد هذا أن يحقق البحث غايته ، كما آمل أن يكون ما قدمناه في هذا البحث حول (حركية قصيدة الرثاء في النقد الحديث (مقاربة بينية) قائماً على الإنصاف والموضوعية ، والنظرة الصائبة ، والبحث الدقيق الذى يدعمهُ الدليلُ ، وتقوِّيه النماذجُ التطبيقية ، وخالياً من التجني على شعر ذلك العصر ، والتعصب ضد شعرائه ، حيث كان هدفي الأول البحثُ عن الحقيقة ، ووضعُ الأمور في نصابها الصحيح ، وأملى النجاح والتوفيق في تحقيق هذا الهدف .

والله من وراء القصد ، وهو المستعان والهادي إلى أقوم طريق

حركية قصيدة الرثاء في النقد الحديث

(مقاربة بينية)

فن الرثاء عالجه الشعراء منذ القدم ، وكان الطابعَ الأعم فيه هو ذاتُ الشاعر المفعمةُ بالألم ، حيث يرثى الشاعر عزيزاً أو صديقاً أو ولداً أو زوجة أو أخاً أو غير هؤلاء ، وهو يقوم على التعبير عن الحزن والألم والأسى الذى يسببه فقد عزيز ، حيث يبكيه الشاعر بكاءً حاراً فيه التفجع على فقده ، والتحسر على موته ، كما أنه يبعث في النفس شتى الأحاسيس ، ويفجر الدموع الحبيسة ، وهو : " أصدق عواطف الإنسان تعبيراً وأجلها تصويراً ، وألصقها بالنبع الخالد ، نبع الوجدان الدفاق، وأن الحبيب عندما يفقد حبيبه يسكب من الدموع أغزرها، ومن العبرات أشجاها ، ومن الهموم أشدها خطباً وأفظعها إيلاماً وأعمقها حسرة " [٤]

والرثاء من أهم الأغراض الشعرية التي عرفها شعراء العصر الحديث ، حيث دعت ظروف المجتمع إلى انتشاره ، واحتلاله مرتبة متقدمة في أغراض الشعر الحديث ولذلك نشط نشاطاً ملحوظا في جميع أنواعه من : تأبين وندب وعزاء ، وكافة اتجاهاته من : رثاء سياسي ، واجتماعي ، ورثاء الدول الزائلة والمدن والقصور ، ولا تزال "الكوارث بأنواعها ، والمعارك بأهوالها من أخصب دوافع هذا الرثاء ، حيث نظر الشاعر إلى المناسبة وما تمليه عليه ، فيكون مدفوعاً إلى ذلك لهيبة الموقف عليه . ومرد ذلك إلى أن موضوع رثائه يحرك النفس ، ويثير الوجدان ، ويربط الإنسان بقضية من أهم قضايا الحياة ، إنه يربطه بالحياة والموت ، أو قل بالفناء والبقاء" .[٥]

ويعتبر فن الرثاء من أصدق الفنون الشعرية تعبيراً عن المشاعر ، وكشفاً عن الأحاسيس ، والتصاقاً بنفس الشاعر ، لذلك يغلب عليه الصدق العاطفي الذى يعد أهم شروط تحقق الصدق الفني في المرثية .

---

[٤] الرثـــاء في الشعر العربي أو جراحـات القلوب د/ محمود حسن أبو ناجى صـــ١٠ منشورات مكتبة الحياة ط٢ ١٤٠٢ هـ

[٥] المرجع السابق والصفحة

ولما كان الرثاء من موضوعات الشعر المحببة إلى النفوس ، القريبة إلى الطباع ولاسيما عند فقد الأحباب ، ولما كثرت دواعي القول فيه نجد الدكتور " شوقي ضيف " يفرق بين ألوانه الثلاثة : الندب ، والتأبين ، والعزاء ، وعرف ثلاثتهم تعريفاً موجزاً يتبلور في كون الندب:" بكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت ، فيئن الشاعر ويتفجع ، إذ يشعر بلطمة مروعة تصوَّب إلى قلبه ، فقد أصابه القدر في ابنه أو في أبيه أو في أخيه ، وهو يترنح من هول الإصابة ترنح الذبيح ، فيبكى بالدموع الغزار ، وينظم الأشعار يبث فيها لوعة قلبه وحرقته " [٦]

والتأبين : " ليس نواحاً ولا نشيجاً على هذا النحو ، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص ، إذ يخر نجم لامع من سماء المجتمع ، فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية ، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه . ومن هنا كان التأبين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعي . فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن المدرسة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها " [٧]

والعزاء عنده : " مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين ، إذ نرى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة ، وقد ينتهى به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة ، فإذا بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود " [٨]

الرثاء عند مدرسة الإحياء والبعث

يلاحظ على شعر الرثاء في العصر الحديث تجاوزه موضوع الرثاء الفردي إلى رثاء القيم والمبادئ التي كان يمثلها المرثي ، والتي كان لها الأثر البين في حياة المرثي ، يتضح ذلك عند شعراء مدرسة الإحياء والبعث ، حيث يمَّموا نحو التراث الشعرى عامة والعباسي خاصة ، فاستمدوا منه جلَّ ما نظموا من أشعار ، لغة وصورة ، وموضوعاً ، فأحيوا شعر الرثاء بعد موته ، وأنضجوه بعد ما كان لا يؤبه به في عصور الضعف الأدبي ، فبفضلهم تكونت نظرية جديدة في الشعر العربي عامة ، وشعر الرثاء خاصة ، مفادها : إحياء الشعر ورد مائه إليه بعدما أصيب بالخمول والكسل ، وأضحى مجرداً من كل عاطفة أو خيال ، فكانت تلك المرحلة منتهى الآمال ومضرب الأمثال في وقت كان الشعر فيه يقرض للنزهة .

اتجاهات الرثاء عند مدرسة الإحياء والبعث

---

[٦] الرثاء صـــ٥ ، دار المعارف ، طـ٤ ، ١٩٥٥ م

[٧] المرجع السابق صـــ٦

[٨] السابق والصفحة

أولاً- الرثاء السياسي :

هو الرثاء الذى يتعلق برجال السياسة والحكم من الملوك و الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وتعزيتهم في أقاربهم .

كان الحزن يبدو على شعراء مدرسة الإحياء والبعث بوضوح حينما يفقدون عزيزاً فتتحرك الشاعرية فوارة ، معبرة عن الأسى العميق الذى شملهم والخسارة الفادحة التي ألمت بهم وبغيرهم .

ومن الرثاء السياسي رثاء " أحمد شوقي " " عمر المختار " الزعيم الليبي الشهير ، حيث نراه يبدأ مرثيته بالحديث عن الموت ، ثم يستنهض همم الشعب الليبي ، يقول :[٩]

ركـزوا رُفاتـك فـي الرمـال لـواءَ يسـتنهض الـوادي صـباح مسـاءَ

يـا ويحهـم . نصـبوا منـاراً مـن دم يـوحى إلـى جيـل الغـد البغضـاء

مـا ضـرَّ لـو جعلـوا العلاقـة فـي غـدٍ بـين الشعـوب مـودة وإخـــاء ؟

جـرح يصـيحُ علـى المـدى وضـحيةٌ تـــتلمسُ الحريـــة الحمـــراء

يـا أيهـا السـيف المجـرَّد بـالفلا يكسو السيوف على الزمان مضاء

تلك الصحارى غِمْدُ كلِّ مهند أبلـى فأحسـن فـي العـدو بـلاء

إلى أن خاطب الشعب الليبي ، متفجعاً على تلك الأزمة التي انتابتهم ، ويتعجب من تماسكهم طالباً منهم اختيار الزعماء الذين يقودونهم في تلك المرحلة الحرجة :

يـا أيهـا الشـعب القريـب أسـامعٌ فأصوغَ فى عمر الشهيد رثاء؟

أم ألْجمتْ فـاكَ الخطـوبُ وحرَّمـتْ أذنيـك حـين تخاطـب الإصـغاء

ذهـب الـزعيم وأنـت بـاقٍ خالـدٌ فانْقُدْ رجالـك واختـر الزعمـاء

وأرِحْ شـيوخك مـن تكـاليف الـوغى واحمـل علـى فتيانـك الأعبـاء

إنهـا كمـا يـقول الدكتور " محمد محمد حسين " من عيون الرثاء "[١٠] ، على الرغم من أن " شوقياً " " نـال قصـب السبق في رثـاء الممالك الإسلامية الزائلة ؛ لأنـه كـان عميق

---

[٩] الديوان تحقيق / الحوفي ٢/ ٣٤٤ – ٣٤٧

[١٠] الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، جـ٢ ، هامش صـــ١٥٩ طـ٢ ، ١٩٦٢ م

الثقافة ؛ نتيجة لكثرة أسفاره وتنقله بين بلدان العالم ، ورغم ذلك فإن لم ينأ عن رثاء الأشخاص ملوكاً وأمراء وسادة وأشرافاً ورؤساء " [١١] كما سبق .

ومن الرثاء السياسي قصيدة " خليل مطران " في رثاء الأميرة " كاملة هانم " كريمة صاحب الدولة الأمير " حسين كامل باشا " يقول : [١٢]

من الملأ الأسمى على ذلك القبر ملائك حراسُ الفضيلة والطهر

سجود على باب الضريح الذى ثوت به مصطفاة الله كاملة البر

سلام عليكم فالزموه وآنسوا غلالة حسن تبتلى بيد الهجر

فقد صعدت نفس الأميرة في الضحى إلى الله واستودعتم صدف الدُّرِّ

تحمَّلها نور إلى جنة العلى كما تحمل الأنداءَ أجنحةُ الفجر

فيا سيد الدهر المعزَّى بفقدها أنخشى عليك اليوم من صولة الدهر ؟

ويا أكرم الآباء براّ بوُلده ولكنه برٌّ عصتْه يدُ الضر

أأنت من الرحمن أرأف والداً بمعتاضة السراء عن ألم العمر ؟

ثانياً – الرثاء الاجتماع :

هو هذا اللون من الرثاء الذى تحكمه العلاقات الاجتماعية بعيداً عن شئون السياسة والجهة الرسمية للدولة كرثاء الأهل والأصدقاء ، وكان يقصد به التفجع على الميت وإبراز مناقبه وأعماله الجليلة .

ولقد جرى شعراء مدرسة الإحياء والبعث مجرى الرثاء القديم ، حيث عبروا فيه عن رقة مشاعرهم وفيض أحاسيسهم ، واصفين المصيبة وصفاً ممزوجاً بالأسى ، معددين فضائل المرثى ، مبرزين أهم الصفات التي كان يتحلى بها أيام حياته ، وقد رثوا الأصدقاء والعلماء والشعراء كما رثوا الآباء والأبناء والأمهات ، كما عرفوا رثاء النفس . وقد ينطلق الشاعر من المرثية إلى الحديث عن الصفات العامة السامية التي يجب أن يكون عليها المسلم ، كما تكون المرثية منطلقاً إلى الحديث عن الموت وفلسفة الشاعر فيه . " فالبارودي " عندما ورد نعى

---

[١١] الرثاء في الشعر العربي ، محمود حسن أبو ناجى صـ٢٢٠

[١٢] الديوان ١ / ٧٢ .

ابنته إليه وهو في منفاه ، لم يستطع البكاء من غلبة الحزن عليه ، حتى تملك ناصية القول ، فلم يزد عن بيتين في ذلك ، يقول : [١٣]

فزعْت إلى الدموع فلم تجبنى وفقد الدمع عند الحزن داءُ

وما قصَّرت فى جزع ولكن إذا غلب الأسى ذهب البكاء

نجده وقد أسلم نفسه للأسى ، فلم يزد عن هذين البيتين لحزنه المفرط ، الذى أسلمه إلى آهة حزينة تضغط على الصدر فلا تخرج ، مع صدقه فيما قال ، لاسيما وأن المرثى ابنته " ستيرة " ، وذلك لأن " سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع ، بين الحسرة مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام " [١٤]

كذلك يبكى " أحمد شوقي " والدته التي نعيت إليه وهو في منفاه بالأندلس ، فراح يبكيها من أعماق قلبه بمشاعر جياشة ، وعاطفة كلها حزن ، وكيف لا يكون ذلك وقد فقد أمه وهو بعيد عنها " وقيل : إنه من شدة تأثره بالقصيدة تعمد ألا يراها بعد ، فبقيت مستورة في أوراقه حتى نشرت في بعض الصحف غداة وفاته " [١٥]، يقول : [١٦]

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهماً أصاب سويداء الفؤاد وما أصْمَى

من الهاتكات القلب أولَ وهلةٍ وما داخلتْ لحماً ولا لامستْ عظماً

توارِدَ والناعي فأوجست رنة كلاماً على سمعي وفى كبدي كَلْما

فما هتفا حتى نزا الجنب وانْزوى فيا ويح جنبي كم يسيل وكم يَدمَى

طوى الشرق نحو الغرب والماء للثرى إلىَّ ولم يركب بِساطاً ولا يمّاً

---

[١٣] الديوان صـ ٤٩ ، دار العودة

[١٤] العمدة لابن رشيق جـ٢ صـ١٤٧ ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، دار الجيل ، طـ٤ ١٩٧٢ م .

[١٥] ديوان شوقي تحقيق الحوفي جـ٢ صـ٥٣٢

[١٦] المصدر السابق صـ٥٣٢ ـ ٥٣٧ .

أبـــان ولـــم ينـــبسْ ، وأدَّى ولـــم يفُـــهْ وأدمـــى ومـــا داوى ، وأوهـــى ومـــا رمَّـــا

ويستمر شاكياً عوادي النوى ، معرجاً على الحكمة التي تصاحب الرثاء ، كذلك أرى أن الرثاء عنده ينحو منحى عقلياً ، فنجده يخاطب العقل المجرد ، يقول :

ولـــم أر كالأحـــداث ســـهماً إذا جـــرت ولا كالليـــالي راميـــاَ يُبعـــد المرمَـــى

ولـــــم أر حكمـــــاً كالمقـــــادير نافـــــذاً ولا كلقـــاء المـــوت مـــن بينهـــا حتْمـــاً

إلـــى حيـــث آبـــاءُ الفتـــى يـــذهب الفتـــى ســـبيل يـــدين العـــالمون بهـــا قِـــدْما

ومـــا العـــيش إلا الجســـم فـــي ظـــل روحـــه ولا المـــوت إلا الـــروحُ فارقـــت الجســـما

كما يرثى " خليل مطران " أمه رثاءً حاراً باكياً بدموع غزار وقلب متقد تغشاه الحسرة والفجيعة على فراقها ، عبر عن ذلك بكل صدق ، حتى اتخذ من رثائها وسيلة لفلسفته في الحياة والموت ، يقول من مقطوعته " وا أماه " : [١٧]

يـــا نعمـــة عظمـــتْ فلـــم تـــدم وكـــذا تكـــون عظـــائم الـــنعمِ

عشـــنا زمانـــا وهْـــى قســـمتنا وغناؤنـــا عـــن ســـائر القِسَـــمِ

حتـــــى عـــــدمناها فعِزَّتُنـــــا كالـــــذل والإثـــــراء كالعـــــدم

واحـــرَّ قلبـــا يـــا أميمـــة أن تمضى ويمضـى السعد من أمَمِ

مـــاذا أنـــا ؟ ولمـــن مكـــافحتي ؟ وعـــلام بـــذلي قـــوتي ودمـــى

وهنـاك مـراث كثيـرة لشـعراء مدرسـة الإحيـاء والبعـث بكـوْا فيهـا أبنـاءهم وآبـاءهم وزوجاتهم ، وأصدقاءهم ، حتى قال " حافظ إبراهيم " : [١٨]

إنـــي مللـــت وقـــوفي كـــل آونـــة أبكـــى وأنظـــم أحزانـــاً بـــأحزان

إذا تصـــفَّحت ديـــواني لتقرأنـــي وجدت شعر المراثي نصف ديواني

حتى رصد نفسه للحزن والبلوى ، يقول : [١٩]

---

[١٧] الديـــــوان ٤ / ١٤٥

[١٨] الديوان ١ / ١٤٠

خلقــتَ لـــي نفســـاً فأرصـــدتها للحـزن والبلـوى وهـذا الشـقاءْ
فــامـــنن بنفس لم يشبْها الأسى لعلهـــا تعــرف طعـــم الهنـــاءْ

وعندما ننظر في قصيدة " خليل مطران " " وردة ماتت " [20] إحدى قصائد الذكرى السنوية التي كان يهديها الشاعر إلى روح فقيدة عزيزة ، فنجد فيها الكثير من الملامح التجديدية التي رادها المجددون بعده .

نجد في تلك القصيدة انفلاتاً من حدود الزمان والمكان الذى يحيا فيهما الشاعر إلى حدود أبعد من ذلك ، فلقد بنى الشاعر القصيدة على الحوار بين نفسه الحزينة وبين الأرض التي قابلت محبوبته ، التي رمز لها بالوردة ، كما شاركته الطبيعة مأساته التي تمثلت في : بكاء الأرض ، ذبول الريحان ، أعين النرجس النائمة ، يقول :

أبكـتِ الأرض عليهـا جزعـاً وردةٌ في عنفوان العمر حانتْ
لبســـت زينتهـــا عاريـــة لشـباب ثـم ردَّت مـا اسـتدانت
لقيتْهـــا الأرض تكريمـــاً لهـــا بـين جفنـين فعزَّت حيث هانـت
وابْتنتْ من صدرها قبرا لها جثتِ الحسنى عليه واستكانت
ذبُـل الريحــان حزنــاً وبـدتْ سـنةً فـي أعين النـرجس رانـتْ

لذا كان من الحق أن نذكر أنه " قد جدد بالفعل فى شعره ، وأنه التفت إلى مزية الصدق التي نادى بها أصحاب مدرسة الديوان ، ولكن التفــاته لم يكن التفات ناقد أو صاحب رأى ، وإنما كان التفات شاعر قوى الموهبة " [21]

ثالثاً – رثاء المدن :

لم يقف شعـــراء مدرسة الإحياء والبعث موقفاً سلبياً إزاء اضطراب الأحوال في بلادهم ، فظلوا يحذرون الشعوب العربية من المصير المفزع الذى ينتظرهم ، وأخذوا يستصرخون الملوك والحكام لنجدة المدن السليبة ، ويستنهضون عزائمهم لجهاد أعداء الإسلام ، ولكن صرخاتهم ذهبت

[19] الســـــابق ٢ / ٣٥٨
[20] الديوان ٢ / صــــ١٠ ، ١١
[21] الشعر بين الجمود والتطور ، العوضي الوكيل صـــ١٤ ، ١٥ ، دار القلم ١٩٦٤ م .

أدراج الرياح ، فقد استفحل الداء ، وأخذت المدن الإسلامية تتهاوى مدينة إثر مدينة على نحو يثير الألم والحسرة في النفوس .

ومهما يكن من أمر الرثاء فإن المدينة صارت عندهم تمثل كياناً له معنى ووجود في نفوس أهلها ، وإن أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط كثيرة مادية ومعنوية ، وقد تولد في نفوسهم - نتيجة ذلك – شعور إنساني نبيل إزاء المدينة ، عبروا عنه في صدق وحرارة ، عندما رأوا الخراب والدمار يحل بها كأنهم فقدوا بها عزيزاً لديهم .

ومن رثاء المدن قصيدة " أحمد شوقي " التي قالها في مدينة " أدرْنة " إحدى المدن العثمانية في مقدونيا ، بعد أن سقطت في يد البلغار ، يشبهها بالأندلس في محنتها ، لاسيما وأنه أسماها " الأندلس الجديدة " ، يقول منها :[٢٢]

يا أخت أندلسٍ عليك سلامُ هوت الخلافة عنك والإسلامُ

نزل الهلال عن السماء فليتَها طَويَت وعمَّ العالمين ظلام

أزرى به وأزاله عن أوجه قدر يحط البدر وهو تمام

جرحان تمضى الأمتان عليهما هذا يسيل وذاك لا يلتام

بكما أصيب المسلمون وفيكما دفن اليراع وغُيِّب الصمصام

لم يُطو مأتمها ، وهذا مأتم لبسوا السواد عليك فيه وقاموا

ما بين مصرعها ومصرعك انقضت فيما نحب ومُكره الأيام

خلت القرون كليلة وتصرَّمتْ دول الفتوح كأنها أحلام

والدهر لا يألو الممالك منذراً فإذا غفلن فما عليه ملام

مقدونيا – والمسلمون عشيرة- كيف الخؤولة فيك والأعمام؟

أتَريْنهم هانوا ، وكان بعزهم وعلوِّهم يتخايل الإسلام؟

في هذه الأبيات عاطفة صادقة يكشف فيها الشاعر عن حزنه العميق لما أصاب " أدرْنة " تلك المدينة الإسلامية من سقوط وما لحق بأهلها من الموت والخراب ، ويشبهها بالأندلس ،

[٢٢] الديوان تحقيق الحوفى / ١ /٣٨٥ - ٣٩٤ .

فالظروف متشابهة ، والحال واحدة ، كما يستنهض همم المسلمين لاستنجاد أهلها من براثن من خربوها ، وبصوت انهزامي يتحسر الشاعر على ما ألمَّ بتلك المدينة من دمار ، لاسيما وأن ألفاظه ملئت بالحزن من مثل : المأتم ، السواد ، المصرع ، حين يقرأها المتلقي يلمس نغماً حزيناً ، وإيقاعاً بطيئاً ، وعبارات حزينة ، تشف عما تحتها من ذل وتقهقر .كذلك رثى " حافظ إبراهيم " مسجد " أيا صوفيا " ، فعندما وقعت " الآستانة " في يد الحلفاء ، استثار ذلك المشهد لوعة الشاعر ، فبكى هذا المسجد بكاءً حاراً ، وتفجع على ضياعه ، يقول [٢٣]

(أيا صوفيا) حان التفرُّق فاذكري عهود كرام فيك صلّوا وسلّمُوا

إذا عدتِ يوماً للصليب وأهله وحلّى نواحيك المسيح ومريم

ودُقَّت نواقيس وقام مُزمِّرٌ من الروم فى محرابه يترنّم

فلا تنكري عهد المآذن إنه على الله من عهد النواقيس أكرم

تباركتَ ، بيت القدس جذلانُ آمنٌ ولا يأمن البيت العتيق المحرم

أيرضيك أن تغشى سنابك خيلهم حِماك وأن يُمنى الحطيم وزمزم؟

وكيف يذل المسلمون وبينهم كتابك يُتلى كل يوم ويكرم ؟

نبيك محزون وبيتك مطرق حياءً وأنصار الحقيقة نُوَّم

عصينا وخالفْنا فعاقبت عادلاً وحكَّمت فينا اليوم من ليس يرحم

"فقد جعل سقوط"الآستانة" في يد الإفرنج خطراً يخشى أن يمتد إلى البيت الحرام ؛ لأن في سقوط الدولة العثمانية سقوطاً لولاياتها " [٢٤]. ويلاحظ على رثاء المدن والأماكن أنه لم يكن قاصراً على رصد وتسجيل الأحوال فقط ، بل امتد ليشمل الاستصراخ وطلب النجدة .

الرثاء عند مدرسة الديوان

---

[٢٣] الديوان ٢ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ دار صادر

[٢٤] السابق هامش صـ ٣٣٨

جاء الديوانيون فوجدوا التربة صالحة للتجديد ، فلم يتوانوا في ذلك ، إلا أن تجديدهم بنى على القديم الرائع ؛ لدرجة أن تشابهت قصيدة الرثاء عندهم معها عند البعثيين ، فالقدماء ، فكان ذلك منطلقاً للأبوليين أن ينهجوا نهجهم في التقليد والتجديد.

اتجاهات الرثاء عند مدرسة الديوان :

أولاً – الرثاء السياسي:

لم ينبتّ شعراء مدرسة الديوان عن مجتمعهم ، وإن قالوا غير ذلك ، فقد رثوا بعض رجال الأمة والساسة ممن كان لهم أثر بين في الحياة السياسية ، إلا أن رثـــــاءهم قلَّ قياساً إلى شعراء مدرسة الإحياء والبعث.

فالعقاد – مثلاً – بالقياس الى مدرسة الإحياء والبعث - " أول ما يلفت نظرنا إلى شعره من قصائد الرثاء في دواوينه جميعاً . ذلك أنه لم يكن يرثى إلا عظيماً من عظماء هذه الأمة أو يرثى صديقاً دفعه الوفاء وحق الصداقة إلى تأبينه ... وكان أحياناً يلجأ إلى الرثاء بدافع نفسى محض ، وهذا هو التجديد الذى أضافه إلى موضوع الرثاء..... وإن كنا نعثر على بعض القصائد الرسمية – في باب المديح "[٢٥]

يقول في رثاء " محمد فريد "[٢٦] :

أطلقـــت وجـــداني ومثلـــك يطلـــق فـــالنفس تـــألم والجـــوانح تخفـــق

وأعـدت مـن جـدث الوجـوم بـوادري ولمـــا يعيـــد أشـــد ممـــا يزهـــق

مـــرت بـــي الأيـــام أنكـــر كـــلَّ مـــا يبـدى الخيـال ومـا يعيـد المنطـق

أجفـــو الكـــلام ، وقـــد يغـــوِّث مكتـــوٍ نـاجٍ ويسكت فـي اللظـى مـن يخنـق

دنيـــا نزاولهـــا ونحـــن كأننـــا مـن غيـر طينتهـا نصـاغ ونخلـق

محجوبـــة المرمـــى ، فمـــا لشـــرورها تعتـــاد حاســـرة الوجـــوه وتبثـــق

[٢٥] شعر العقاد د/ زينب العمرى صـ٣٣٦ مكتبة الشباب
[٢٦] الديوان ١ / ٢٦٢ – ٢٦٥

نمشـــى علـــى الأبـــدىِّ مـــن أشـــواكها ونتاجهـــا الأبـــدي عنـــا مغلـــق
وكأنمـــا الـــدنيا ســـراب ســـرمد لا يُرتَـــوى منـــه ، ولكـــن يُغـــرق
ســـلواك فيهـــا حـــين يخفـــق عامـــل ترجـــوه ، أنَّ صـــداه قـــد لا يخفـــق

****

أفريـــد لا يُلْمـــمْ بســـيرتك الـــردى أبـــداً ولا يبـــرح ســـلاحك يُمشَـــقُ
مـــا كـــان ذاك العمـــر إلا وقعـــة الـــدَّهر حومـــة حربهـــا لا الخنـــدق
والناصـــرون الحـــق جـــيش واحـــد متجمـــع فـــى مـــدِّه متفـــرق
الأنبيـــاء الصـــالحون جنـــودُه والحـــق بيرقُـــهُ ونعـــم البيـــرقُ

" في هذه الأبيات نجد أن الوزن والقاف المضمومة تساعدان الشاعر على أن يبث آلامه ، فإن حرف القاف فيه من الشدة ساكناً ما يناسب الحزن والألم وتصوير الفاجعة ، فإن كان هذا الحرف محركاً بالضم فإنه يكون أشد وأعمق " [٢٧]

كما خرج الشاعر عن حدود مناقب مرثيه إلى نصيحة الشباب وتوجيه اللوم والعتاب لهم .

ومثل هذه القصيدة قصيدة " المازني " في رثاء " محمد بك فريد " ، يصور فيها حزن الطبيعة على فراق المرثى ، يقول : [٢٨]

شـطنَ المنـون ملكـت أي قيـاد مـن مُصـعَب مـا كـان بالمنقـاد
فأنـاخ لا يرجـى لديـه علـى البلـى سـبق إلـى الغايـات والآمـاد
وثـوى بمدرجـة تسـاوى عنـدها ذَلُّ الحقيـر وعـزة الأمجـاد
نجمـان قـد غربـا : فـذا لمنيـة عجلـى ، وذاك لغربـة وعـوادي
وا لهفتـاه لـه ، يـذوب كيانـه وجَنانـه كالكوكـب الوقـاد

ثم يصور فجيعة الشعب في المرثى ، وكيف أن حياته ذبلت سريعاً ، ومع ذلك حسبه ماضيه الأغر ، وجهاده المشرف ، يقول :

---

[٢٧] شعر العقاد د/ زينب العمرى صـ٣٣٧
[٢٨] الديوان ٣ / ٢٥٠ ــ ٢٥٣

قد تسقط الأزهار عن أغصانها ويقُرُّ قلب النسر وهو يرادى
وترى النجوم الزهر من أفلاكها تهوى- من الآباد في الآباد
كلٌّ يلم به العفاء وهل ترى شيئاً يدوم على الزمان العادي ؟
لكنما ماضيك أبهر روعة من أن يضيع كصرخة في واد

وبالموازنة بين القصيدتين ، فهما في الرثاء ، والمرثي واحد ، لكن الألفاظ والمعاني عند المازني أبلغ وأدق في تفسير الحزن الذى ينتابه من ألفاظ العقاد ومعانيه ، ويمكن أن يعود ذلك إلى طبيعة المازني الساخرة المتألمة ، كما كانت الطبيعة عضداً قوياً في توصيل الحزن منها عند العقاد ، كما سهل اللفظ كثيراً عند المازني منه عند العقاد .

ثانياً – الرثاء الاجتماعي :

اندفع شعراء مدرسة الديوان نحو الرثاء مجددين فيه ، من صدق شعوري وإحساس بالحزن الدفين الذى يملؤهم ، لاسيما وأنهم ملكوا مناسبة القول ، فلم يدعوا الحزن ، بل هم مفطورون عليه ، كما كانت الطبيعة مصدراً خطابياً لهم في جل أغراضهم الشعرية ، لاسيما الرثاء ، حتى بلغ من حزنهم المفرط أن رثوا أنفسهم ، كما توجهوا برثائهم إلى رثاء الفضائل والقيم التي زالت ، والتي يتمنون وجودها .

ومن رثاء النفس عندهم قصيدة " المازني " ، يقول فيها :[٢٩]

قضى غير مأسوف عليه من الورى فتى غرَّه في العيش نظم القصائد
لقد كان كذاباً وكان منافقاً وكان لئيم الطبع نزر المحامد
وكان خبيث النفس كالناس كلهم جباناً قليل الخير جم الحقائد
وقد كان مجنوناً تضاحكه المنى وفي ريقها سم الصلال الشوارد
فعاش وما واساه في العيش واحد وما مات ولم يحفل به غير واحد
وجاء إلى الدنيا على رغم أنفه وراح على كره الأماني الشوارد

[٢٩] الديوان ٢ / ٢٠١

أراد خلـود الـذكر فـي الأرض ضـلة فـــأورده النســـيان مـــر المـــوارد

ولـــم يبكـــه إذ مـــات إلا أجيـــرة لهـا زفـرة لـولا اللهـى لـم تصـاعد

تلك القصيدة علق عليها الشاعر بقوله : " قصيدة قلتها في نفسى على لسان آخر وسألت صاحباً لي أن يرثيني بمثلها "[٣٠] . إن كلمات الشاعر فيها ترجمت عما يتردد في نفسه وعبرت عما بداخله من سخرية الأوضاع المعيشة ، لاسيما وهو يكابد الحزن لإحساسه بغبنه في مجتمعه ، فمضى ينوح في حزن عميق وأسى دفين ، فقد اندفع نحو رثائه نفسه ضارباً على أوتار قلوب الذين عايشوا ويعايشون معه تلك التجربة المؤلمة ، التي جعلته يفقد الأمل في أن يرثى لإحساسه بالغبن ، فلا بأس أن يرثى نفسه .

وقد يلح على الشاعر إحساس معين ، ويشتد به هذا الإحساس ، فلا يملك أن يفلت من حزنه الذى حاصـره ، فترى كلمـــات بعينها تجرى على لسانه تـــكون صورة لما في نفســـه ؛ لأنها تصف ما يحســـه ، فهو من خـلال استخدامها كأدوات للتعبير إنما ينقل عن شعوره ، لذا تراها حزينة في عينيه ، ذلك لأنها دفقة من دفقات أحاسيسه الصادقة ، إذ يخيل إليك أنه نظمها من عصارة وجدانه ومن حبات قلبه ، ومن دمع عينيه .

تجـد هـذا في نظرة العقاد " إلى الطفلة التي داهمها الموت قبل أن تأخذ حقها فى الحياة ، يقول في قصيدته " رثاء طفلة " : [٣١]

زهـــرة كـــان وجههـــا نـــور قلبـــي ونـــاظري

حملتهـــا يـــدُ الـــردى حمـــلَ مـــن لـــم يحـــاذر

فتـــوارت ولـــم يـــزل عَرفهـــا مـــلء خـــاطري

يـــا ضـــياء تضمنتـــ ـــه بطـــون الـــدياجر

قـــد أجنَّـــوك فـــي الثـــرى يـــا جنـــين الضـــمائر

فـــالزمى الـــرمس حـــين لا حلْـــمَ فـــى عـــين باصـــر

فـــإذا أقبـــل الـــدجى وغفـــا كـــل ســـاهر

[٣٠] المصـــدر السابق والصفحة .

[٣١] الديوان ١ / ٨٣ ، ٨٤

فاطرقينـــا مـــع الكـــرى حلمـــا غيـــر نـــافر

وصـــلى عيشـــك الـــذى كـــان أحـــلام ســـادر

وامرحـــى فـــي صـــدورنا واضـــحكى فـــي الســـرائر

ثـــم عـــودي إذا الصـــبا ح تجلـــى فبـــاكري

إن صـــعباً علـــى الصـــغا ر احتبـــاس المقـــابر

فهـو يكشف عمـا صنعه بـــه مـــوت الطفلة ، لقد فقد معها كل شيء ، فقد نور قلبه وناظـــره ، بل فقد الضياء . وهكذا تتبدل صور الأشياء في خيال الشاعر فيخلع عليها مكنونات نفسه وأحاسيسها .

ثالثاً – رثاء المدن والأماكن

ازدهر رثاء المدن والأماكن ازدهاراً كبيراً عندهم ، كما يعد رثاء المدن من الأغراض التقليدية ، والتي انتهج نهجها شعراؤها ، وساروا على منوال القدماء فيه ، واحتذوا حذوهم ، اللهم إلا بعض اللمحات التجديدية التي كانت نتيجة طبيعية لتطور المجتمع الذى يحيونه ، كما كان لذواتهم الحزينة المنطوية أثر لذلك ، فتخطوا برثائهم المكان والزمان إلى الأماكن التي يتمنون الحياة فيها ، لاسيما وأن آمالهم كانت أكبر من أن تحد ، كما لم يقفوا رثائهم عند المدن الإسلامية ؛ بل تخطوها إلى رثاء بعض المدن التي كان لها في الحضارة العالمية الأثر البين .

يقف العقاد " على أطلال بعلبك " : [٣٢]

أيـا " بعـل " هـذا قـادم لـك مقـدم وفـى لمـن يـزرى بـه الـدهر مكـرم

دعـــوت وحوليـــك الأســـنة شـــرع فلبَّـــاك لا تثنيـــه نـــار ولا دم

أتـاك مـن الـوادي الـذى فـي ضـفافه تسـامى " لآمـونَ " البنـاء المـدعَّم

وأقوى كما أقوت ذراك على المدى وأقصـر عنـه العابـدون وأحجمـوا

يحييـك عـن " آمـون " فـي مسـتقره وأنـت المحيَّـى باسـمه والمسـلم

فمـا بعـل إلا اسـم لآمـون تلتقـى لـه صـور شـتى ولفـظ مقسَّـم

[٣٢] الديوان ٤ / ٣٢٧ ، ٣٢٨

****

ويـا دار بعـل وهـى لا بعـل عنـدها ويا حصن بعل وهى لا شئت تعصمُ

ويـا جـارة الماضـين والـدهر جـائر ويـا مشـرقَ الآمـال والليـل مظلـم

عــزاءً إذا أدبــرت والعــيش مقبــل وروضــك مطلــول الأزاهيــر يبســم

ولـم يـدفع الأربـاب عنـك ولا الألـى أنـــابوا إلـــيهم بالـــدعاء ويممـــوا

ومـــا حيلـــة الأربـــاب فيـــك وإنهـــا لتبنـى كمـا تبنـى الصـروح وتهـدم ؟ !

حيث نرى الشاعر يبكى " بعلبك " ويصف ما آل إليه حالها ، وأثر ذلك في نفسه ، كما يحاول التأقلم على العيش في هذا الواقع المرير ، لاسيما والوضع في تدهور مستمر ، كما يرسل التحية إثر التحية لتلك المدينة الغراء .

كما حافظ شعراء مدرسة الديوان في رثاء المدن " على جزالة الديباجة ونحت الشعر من رخام اللغة كما تنحت التماثيل ... وحرصت على الاحتفاظ بها " [٣٣]

ولا غرو إذا قلنا إن شعراء مدرسة الديوان نهجوا النهج القديم شكلاً لكنهم حاولوا التجديد في المضمون " فهم يرون كما يرى غيرهم أن الشعر بحاجة إلى التطوير والتجديد ، وأن التجديد يجب أن يتعلق بالمضمون لا بالشكل فمذهبهم إنما هو تغيير لمفهوم الشعر وتوضيح لمهمة الشاعر وليس عندهم –إذن- جديد وقديم ، وإنما عندهم شعر و غير شعر " [٣٤] .

الرثاء عند مدرسة أبولو

تشكلت هذه المدرسة في فترة تعد من أصعب الفترات التاريخية وأقساها في تاريخ مصر الحديث ، لقد تهادن القصر والإنجليز واتفقا على أن يسلبا مصر من أي حق ديمقراطي ، ويتبع ذلك الاستبداد السياسي والقهر الفكري خراب اقتصادي وظلم اجتماعي.

وقد وجد هؤلاء الرومانسيون على اختلاف إبداعاتهم الأدبية في صورة الحزن و الألم والشكوى والتأمل معادلاً ليأسهم في الحياة ، وعجزهم عن التصدي للواقع .

ولم يكن فرارهم عن التصدي لقضايا الواقع عشوائياً ، أو صدفة ؛ بل عن وعى وإدراك ، بعداً عن الصدام غير المحسوب ، فقد يئسوا من قدراتهم الفردية وقدرات شعوبهم .

---

[٣٣] الشعر المصري بعد شوقي د/ محمد مندور ، الحلقة الثالثة صـ١٠٣

[٣٤] الشعر بين الجمود والتطور / العوضي الوكيل صـ٣٢

اتجاهات الرثاء عند مدرسة أبولو:

أولاً – الرثاء السياسي :

عاصـر الأبوليون تلك الأحداث السياسية بزخمها ، فأرادوا أن ينأوا عنها ، لكن هيهات ، فاستمالوا شعراء مدرسة الإحياء والبعث والديوان ، كي يبتعدوا عن خضم المعارك الأدبية ، التي كانت في الأساس أثراً لموقف حزبي أو شخصي .

هذه الظروف العامة القاسية هذى التي دفعت الأبوليين إلى تكوين مدرسة تنشر روحاً من التآخي والتعاون بين الشعراء ، رغم اختلاف مفاهيمهم الفنية وقدراتهم الإبداعية .

وبهذا يفسر رثاؤهم السياسي ، فضلاً على أمانيهم المبتغاة ، التي يتمنون رؤيتها في الواقع الملموس ، بعد أن تحطمت آمالهم نتيجة لذلك الواقع المرير .

كما رأينا في رثائهم " الفكرة منسجمة مع الخيال والشعور ، حيث لاءموا بين الوجدان والعقل فخرجت تجاربهم مشرقة متسمة بطابع رقيق تتوهج فيه الرؤيا الشعرية والانفعال الحار "[٣٥] . ولقد جرى الأبوليون في رثائهم السياسي مجرى الشعر القديم ، حيث عبروا فيه عن رقة مشاعرهم وفيض أحاسيسهم ، معددين فضائل المرثي مبرزين أهم الصفات التي كان يتحلى بها أيام حياته .

ومن الرثاء السياسي عندهم رثاء " على محمود طه " عدلي يكن " ، يقول فيها :[٣٦]

وقفةً بالشواطئ المحزونة يذكر النيل دمعه وشجونهْ

ودَّ لو حولوا إلى السين مجرا هُ وبثوا على الطريق عيونه

ومشى بالشهيد للوطن الثا كل بحراً من الدموع الهتونة

دنت الدار يا سفينة إلا شاطئ حالت المنية دونه

---

[٣٥] مدرسة أبولو وأثرها في الشعر الحديث د/ عبد العزيز الدسوقي صـ٣٢٠

[٣٦] الديوان ١ / ١٩٧ – ١٩٩ دار العودة.

فاهدئى في ضفاف مصر وقرِّى آن لليـــث أن يحـــل عرينـــهْ

فعلى الرغم من المعجم الشعرى الجديد الذى استعمله الشاعر ، والذى تمثل في العبارات المركبة من مثل : الشـواطئ المحزونة ، والدموع الهتونة ، والتصاق الشاعر بالطبيعة ومفرداتها فالشواطئ حزينة لوفاة " عدل يكن " والبـحر يدمـع آسياً لوفـــاة المرثى .

أقول على الرغم من ذلك فإن المبالغة قد أخذت تظهر في ألفاظه ومعانيه .

وما أن تنتصف القصيدة حتى نجده ينأى عن المبالغة ، ويرتبط كثيراً بالصدق الفني ، لاسيما إذا تحدث عن الحالة الحزينة التي تنتاب الجميع ، يقول :

مـا شـهدت الأيـامَ غيـر سـواد يشـفق الـنجم أن يشـق دجونـه

كـلَّ يـوم تسـتقبلين شـهيداً ذاق فـي وحشـة الغريـب منونـه

أو طريـداً وراء بحـر تحـامى أن يرى مصر في الحديد سجينه

فـاذكري الآن يـا شـواطئ عينـا شـيَّعتْ بالبكـاء كـل سـفينه

واحملـي الوافـد الكـريم حنانـاً والْثمـي ثغـره وحـيِّ جبينـه

فالأبيات ملأى بالسواد ، لاسيما إذا كانت المناسبة التي اقتضت القول هي الرثاء ، تلك المناسبة " تتطلب من الألفاظ الحزينة المواسية الباكية ما تشيع في جو الأبيات الروح الغالبة على ذلك الضرب من الشعر ، وذلك الغرض من أغراضه "[٣٧]

ثانياً- الرثاء الاجتماعي :

لم تشهد الحياة الأدبية العربية على امتدادها التاريخي الحديث حركة أدبية تجديدية ، تحمل عبء الدعوة إلى اتجاه جديد كمدرستي الديوان و أبولو .

كما استطاعت تلك المدرسة أن تشق لنفسها طريقاً واضح المعالم والأبعاد في هذا الخضم الزاخر من الاتجاهات الأدبية .

كما كان لحداثة سن روادها ، والاختلافات الأدبية آنذاك الأثر البين في رثائهم الاجتماعي ، الذى كان- أحياناً- يتصف بالمجاملات الشخصية أو الحزبية ، إلا أن تلك المجاملات

[٣٧] مدرسة أبولو الشعرية في ضوء النقد الحديث د/ محمد سعد فشوان صـــ١٥١

أحياناً كانت تصدر عن تقدير وحب ، يغلفان المرثية بالصدق الفني ، لاسيما وأن " أحمد زكى أبو شادي " أطلق على التقدير والرثاء " ديون الفضل " ، يقول : [٣٨]

تُقـــدِّر آثـــار العقـــول يراعتـــي على العيش لا يوم الرثاء على الموت

فـلا خيـر فـي التقـدير مـن بعـد غربـة فسـدِّد ديـون الفضـل قبـل نـوى الفـوْت

ولمجاملاتهم كثر رثاؤهم الاجتماعي كثرة لفتت الأنظار .

ومـن شعـر الـرثاء الاجتماعي قصيدة " إبراهـيـم نـاجى " فـي " رثـاء محمد عبد اللطيف الهمشري" " الشاعر النابغ الذى انطفأ نجمه في نضارة الشباب .." [٣٩] يقول : [٤٠]

لا تجزعـوا للشـاعر الملهـم ما مات لكن صار في الأنجم

مـا كـان إلا زائـراً عـابراً لأى سـر جـاء لـم نعلـم

والآن قـد رُدَّ إلـى سـربه فـي قـدس ذاك الفلـك الأعظـم

الآن قـد رُدَّ إلـى ربـه فتـى إلـى الخلـد مشـوقٌ ظمـى

الآن قـد أصـبح فـي قربـه فتـى لآفـاق السـما ينتمـى

كـان فراشـاً حـائراً فـي الـدنى ففـي نورهـا أو نارهـا يرتمـى

فـإن نجـا مـن نارهـا مـرة فمـن لهيـب الـنفس لـم يسـلم

****

لا تجزعـوا للشـاعر الملهـم بنضـرة الأيـام لـم يـنعم

مـر بهـذا الكـون فـي لحظـة طالـت كعمـر الأبـد الأعظـم

أي جـلال فاتـه وصـفه و أي حسـن فيـه لـم يرسـم

فـإن يكـن رد إلـى حضـنه فعـودة المغـرم للمغـرم

ورجعـة القلـب إلـى صـدره بـالعطف فـي أحنائـه يرتمـى

---

[٣٨] الشفق الباكي ، عنى بنشره صالح الجداوي صـ٣٦٢ ، المطبعة السلفية ١٩٢٦ م

[٣٩] الأعمال الكاملة ١ / ١١٠

[٤٠] المصدر السابق صـ١١٠ – ١١٢

لا تجزعـوا للشـاعر الملهـم والله مـا نـام مـع النُـوَّم

ولـم ينـل منـه أكـول البلـى وإنمـا غـاب إلـى موسـم

حيث نرى الشاعر يبدأ مرثيته بالحديث عن الموت وأنه يخطف الجميع حتى بلا قتال ، وأن الدنيا غادرة لا تؤمن ، ثم يعبر عن حزنه وألمه – هو في ذلك صادق – على الهمشري ثم راح يستخلص العظات والعبر من موت الشاعر في ريعان شبابه حتى صار كالزائر العابر ، ثم يصور أثره الأدبي في الحياة الأدبية .

كما امتازت القصيدة بالصدق الفني الذى وضح في ألفاظ الشاعر ومعانيه ، لا سيما وأن المرثى كان رفيق درب مع زميليه صالح جودت ، و إبراهيم ناجى .

ثالثاً- رثاء الممالك والدول

يعد رثاء الممالك والدول من الأغراض الشعرية القديمة التي رادها شعراء أبولو ، إلا أنهم طوروا فيه ، حتى فاقوا السابقين ، وبرعوا فيه كما وكيفا ، لاسيما وأن ميادين القول قد اتسعت عن ذي قبل ، حيث نرى القصائد العديدة التي تنعى الدول التي سقطت بفعل الاستعمار ، الذى راح يقتطع البلاد جزءاً إثر جزء من أيدى المسلمين ، الذين كانوا لا حول لهم ولا قوة أمام هذه الهزائم المتتالية سوى البكاء ، والاستنجاد ، والحسرة .

والشاعر من وراء ذلك يروض القول بشعر يفيض أسى ولوعة ، لاسيما وأنه وجد أرضاً خصبة عند شعراء صبغهم الحزن بصبغته فكان الخوف والشكوى لهم سيداً وأميراً ، كما جاء رثاؤهم لدولهم صادق العاطفة ، حر المشاعر ، لاسيما وأنه نأى عن الرغبة والرهبة .

ولقد جرى شعراء أبولو مجرى الشعر القديم في رثاء الدول ، حيث عبروا فيه عن رقة مشاعرهم ، وفيض أحاسيسهم .

ومن القصائد البارعة في رثاء الدول قصيدة " على محمود طه " إلى " أبناء الشرق " يتوجه فيها إلى الشرق الإسلامي " حافزاً إياه إلى الكفاح والنضال في سبيل قضيته وقضية

الشعوب العربية في فلسطين "[٤١] حتى يصل إلى حكايتها الاستعمارية الدامية ، يقدم للحديث عن تلك الدولة بتهيئة أبناء الشرق إلى الكفاح والنضال ، يقول :[٤٢]

دعوهـــا منًـــى واتركـــوه خيـــالا فمـــا يعـــرف الحـــقَّ إلا النضـــالا

بنـى الشـرق ! مـاذا وراء الوعـود نطِـــلُّ يمينـــاً ونرنـــو شـــمالا؟

ومـــا حكمة الصمت في عـالم تضـــجُّ المطـــامع فيـــه اقتتـــالا؟

زمـــانكمو جـــارح لا يعـــفُّ رأيـت الضـعيف بـه لا يـوالى

ويومكمـــو نهـــزة العـــاملين ومضـــيعة الخـــاملين الكســـالى

ثم يصف جرح فلسطين الدامي ، ويتساءل : ماذا جنت ليكون جزاؤها الاستعمار ؟ ، ثم يعرج على أنها قلب الشرق الإسلامي ، يقول :[٤٣]

" فلسـطينُ " مـالي أرى جرحهـا يســيل ويــأبى الغــداة انــدمالا

تنازعهـــا حيـــرةُ الزاهـــدين وتنهشـــها شـــهواتٌ تقَـــالى

أعـــزَّت أســـاتَك أدواؤهـــا ؟ هو الحق ! ما كان داءً عضالا !

هـــو الحـــق إن رمتمـــو عالمـــاً يشف صـــفاءً ويزكـــو جمالا

أقيمـــوا عليـــه مـــوداتكم وإلا فقـــد رُمْتُمُـــوه محـــالا

فيـــا لَلّبريئـــة مـــاذا جنـــت فتحمـل مـا لا يطـاق احتمـالا ؟

هـي الشـرق ، بـل هـي مـن قلبـه وشـائج مـاضٍ تـأَبَّى انفصـالا

وتـــاريخ دنيـــا وأمجادهـــا بنـى ركنهـا " خالـد " ثـم عـالى

وعـى الحـق " للمصـطفى " دعـوة لنصـــرتها والعـــوادي تـــوالى

تبـارى لهـا المسـلمون احتشـادا وهـبَّ النصـارى إليهـا احتفـالا

---

[٤١] الإسلام في الأدب العربي المعاصر د/ إبراهيم عوضين صـ ٤٠٦ .
[٤٢] الديوان : شرق وغرب صـــ٧٤٥ ــ ٧٥٢، دار العودة
[٤٣] السابق صـ ٧٤٩

مـــن الشـــام والأرز والرافـــدين وأقصـــى الجزيـــرة صـــحباً وآلا

كما يجب القول : إن عاطفة الرثاء عند " على محمود طه " في هذه القصيدة تعلو ، وتنزل أحياناً ، لكنها لا تنأى عن الصدق ، فعندما يتحدث عن الجانب التاريخي في قضية فلسطين ينأى به خياله عن التحليق في سماء الفكر .

أما عندما يسبح به خياله في عالم الرؤى بعيداً عن التاريخ بأحداثه ، نشعر معه بصدق أعمق من سابقه ، لاسيما والمقام مقام رهبة وخشوع .

من هنا فقد استطاع شعراء أبولو أن يشقوا لأنفسهم طريقاً واضح المعالم والأبعاد في الرثاء بأنواعه ، كما أسهموا إسهاماً بارزاً دفع عجلة الأدب الحديث نحو آفاق جديدة من التطور والتجديد .

The movement of the lamentation poem in modern criticism (interfacial approach)

By

Dr. Ezz Al-Arab Farouk Abdul-Razzaq Muhammad

Assistant Professor a t the Faculty of Science and Arts in Tabarjal, Al-Jouf University

Abstract:

The beginning of the twentieth century witnessed a popular revolution in the movement of literary criticism, which in turn led to the development of the poetic movement, and to fueling the spirit of development and renewal between the various literary trends and schools of thought. She had a great credit for the renaissance of our modern Arabic literature from its slump, and its recovery from its long-term slumber during the Ottoman era, which was known as the era of inactivity and stagnation of Arabic literature.The diversity of the walks of the owners of these schools had an impact on the difference in their doctrines, a difference that led to diversity in some of its aspects, and to schizophrenia in others. Conservative orientation, while there was the Diwan School, which saw its bedouin benefit from many theories and literary approaches in foreign literature. It also saw a revolution in the traditional construction of the poem, which was no longer in keeping with the

spirit of the era and keeping pace with its developments. So that it gathered under it a lot of currents and trends of poetry and criticism alike, and this had its role in building bridges of the movement of the poem of lamentation between these schools and currents, so that each of them benefited from the other in the critical movement, and there were reflections and evidence that suggested that these schools had benefited from In addition to benefiting from the data of her literary and critical heritage.

Keywords: Poem, lamentation, approach, interface.